

أهمية الممارسة الفعلية في اكتساب الملكة اللغوية

د. برطولي سليمة

قسم اللغة العربية وآدابها المدرسة العليا للأساتذة *بوزريعة*

إن الاستعمال اللغوي العربي يتطلب بذل الجهد الكبير، وتكاثف الجهود لمعالجة ما يعانيه هذا الاستعمال على أفواه الناطقين باللغة العربية، كيف لا، وهذا الاستعمال ينأى يوما بعد يوم عن تحقيق السلامة اللغوية، وعن تحقيق العملية الاتصالية بلغة عربية فصيحة.

فإن الكلام العربي " لا يكون فصيحاً إلا إذا سلمت مفرداته، وصحّت دلالتها، واستقام تأليفها. أما سلامة مفرداته ففي النطق بحروفها على مقتضى الوضع من غير أن تغير بنقص أو زيادة أو إبدال أو قلب في هيئة ترتيبها، أو في حال حركتها وسكونها. وأما صحّة دلالتها فباستعمالها على وجه مقبول في لسان العرب. وأما استقامة تأليفها فبانطباقه على أسلوب نسج عليه العرب في مخاطبتهم، ولا تتحقق هذه المطابقة إلا برعاية أحكام التقديم والتأخير والاتصال والانفصال، والحذف والذكر ⁽¹⁾."

وهذا الكلام العربي الفصيح قد اتخذ علماء اللغة العربية القدامى طريقة أولى لحفظه، كانت مشافهة الأعراب أساساً له، ثم لما انقطع جبل الممارسة اللغوية والمشافهة والأخذ المباشر للغة فزعموا إلى طريقة ثانية هي الممارسة وكسب اللغة بالتعلم، وهي طريقة تحتاج إلى القواعد والأصول والضوابط، فذهبوا يلتمسون هذه الخصائص والمالم

اللغوية والقوانين التعليمية⁽²⁾ من استقراء المادة اللغوية المجموعة، فألفوا وتدرج تأليفهم ليتسع وينضج كثيرا بعد ذلك.

ومهما قيل في هذا الأمر فإن جهود القدامى من النحاة على درجة عظيمة من الفائدة، فقد استطاعوا أن ينتقلوا من مجرد ضوابط يسيرة تقوم الألسنة بعن أن ضاعت السليقة العربية إلى علم دقيق متطور يدرس لذاته.

لهذا فإن قيل: إن قواعد اللغة العربية صعبة، فليست العربية بدعا بين اللغات في صعوبة القواعد، غير أن جانبا كبيرا من هذه الصعوبة يعود بالتأكيد إلى طريقة عرض النحاة لقواعدهم، فقد خلطوا في هذه القواعد بين الواقع اللغوي والمنطق العقلي، فامتألت كتبهم بالجدل والخلافات التي تجعل المتعلم يختار وسط هذا الركام الهائل من الآراء المتناقضة في بعض الأحيان "والحقيقة أن القواعد الأساسية لنحو الفصحى يمكن أن تستخلص في بضع صفحات خالية من الحشو الذي لا يفيد"⁽³⁾. وهذا ما عاجله الباحثون، وذهبوا في شأنه مذاهب بين التفريط والإفراط.⁽⁴⁾ فalcوا إلينا بأعمال عديدة تحمل عناوين متفاوتة في اللفظ، متقاربة في المفهوم من نحو: تيسير النحو، تهذيب النحو، تحديد النحو، النحو الأساسي، النحو المصفى، النحو الوافي... إلخ.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن مسألة معالجة هذه المشكلة اللغوية أو مسألة تيسير القواعد النحوية وتبسيطها -على أهميتها- لا تكفي لتحقيق السلامة اللغوية، لأن تدريس قواعد اللغة العربية وسيلة وليست غاية، والغرض منها الفهم السليم والتعبير الصحيح في الكتابة والحديث، ومن ثمّ فيرتبط مدى النجاح بما يصل إليه الدارس من مستوى في الاستخدام الصحيح.

وإن تحويل تعلم اللغة - وهو أمر متعدّد الجوانب - إلى قواعد نحوية بأمثلة مصنوعة مبسطة بعيدة عن المستويات المعاصرة للعربية، وتقديم هذه القواعد بطريقة

لا تتيح للتلميذ إلا قدراً محدوداً من التوظيف الفعّال لها يجعله يحوّلها إلى مجرد فرع معرفي ومادة تعليمية تقتصر قيمتها على درجتها في الامتحان، دون أن تتجاوز فائدتها ذلك إلى باقي فروع المادة أو المواد الأخرى، أو إلى التكوين اللغوي للإنسان المعاصر.⁽⁵⁾ وعدم الممارسة الفعلية للغة العربية الفصحى يحول دون اكتساب الملكة اللسانية؛ لأن هذه الملكة " إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكراره على السمع والتفطن لخواصّ تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان. فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها ".⁽⁶⁾

ثم إذا اكتفينا في تعليم العربية بجانب السلامة اللغوية، أي بجعل المتعلّم قادراً على تطبيق القواعد النحوية وحدها، دون مراعاة ما تستلزمه عملية الخطاب، أي دون القواعد البلاغية، كان تعليمنا هذا ناقصاً " لأن الملكة اللغوية بكاملها وفي جملتها هي مهارة التصرّف في بنى اللغة بما يقتضيه حال الحديث ".⁽⁷⁾

ومهما يكن من أهمية درس النحو أو درس البلاغة فإن اللغة تكتسب اكتساباً، وتعلّم بالمران وكثرة الاستماع لها والتحدّث بها واتخاذها أداة للفهم والإفهام.

لهذا، فسبب المشكل العويص الذي يعاني منه الاستعمال اللغوي العربي هو أن عربيّتنا الحاضرة أصبحت شبه مقصورة على توظيفها في الكتابة، وقلّ أو ندر توظيفها توظيفاً سليماً لا ثقاً في الكلام المنطوق على المستوى العام والخاصّ معاً، " وإن بدا لتكلم أن يمارسها بالأداء الفعلي - دون الاعتماد على نصّ مكتوب - وقع في مأزق الخطأ والخلط بين الفصح وغير الفصح ".⁽⁸⁾ فنحن ما زلنا نجعل الكثير من وسائل تعلّم هذه اللغة - ولا سيما نحوها - وكأنّ النحو مادة لا علاقة لها باللغة يقرأها الطالب فيضيق بها ذرعاً، فلا تدخل في سلوكه اللغوي مما يؤدّي على شيوع اللحن والخطأ.⁽⁹⁾

والعلاج ليس في زيادة ساعات النحو، أو قواعد الإملاء، أو غير ذلك من أساليب رتب الثوب اللغوي المهلهل، وإنما يتطلب الأمر إعادة النظر في جو المدرسة كله حتى تخلق فرصة الممارسة الصحيحة للغة.

لأن انتحاء سمت كلام العرب يكون عن طريق الاتصال المباشر والمستمر بالكتابات الأدبية⁽¹⁰⁾ حيث يتيسر للقارئ أن يقف على مستويات راقية من الاستخدام اللغوي، سواء من حيث انتقاء المفردات والتراكيب فضلاً عن أن هذا الاتصال يكسب القدرة على فهم أسرار اللغة، وإدراك الفروق بين الاستعمالات اللغوية المحدودة التي تعلمها هذا القارئ، والاستعمالات المجازية المتنوعة التي يبدع الأدباء في استخدامها.

كما نتجحي سمت كلام العرب إن عودنا أنفسنا على أن نسمع من معلمينا، ومن وسائل إعلامنا لغة عربية سليمة، وأن نقرأ كلام العرب قراءة صحيحة، وأن نحفظ نصوصاً من كلام العرب بصورة سليمة ما وسعنا أن نحفظ. و أن نعود أنفسنا على الأداء اللغوي الصحيح قراءة وكتابة، وكلاماً في المواقف المقتضية ذلك؛ وبذلك نكون قد هبنا بيئة لغوية مناسبة. ثم ننظر في كتب النحو التي ترشدنا إلى ضوابط الاستعمال اللغوي العربي " لأن كتب النحو التي نتلقفها في مدارسنا ، مهما يسرت، ومهما شحنت فيها التدريبات المتنوعة ، فلن تكفي في انتحاء سمت كلام العرب ما لم توازرها القراءة الجهرية الصحيحة والتعبير الشفوي والتحريري المستقيم، وحفظ النصوص بأداء سليم " .⁽¹¹⁾

فالممارسة الفعلية للغة تكسب الآلية في الاستعمال، وإذا اعتاد مستعمل اللغة على توظيف مخزونه اللغوي عن طريق الإكثار من الاستعمال له فعلياً فإن هذا التكرار في التوظيف يسهل على المتكلم اكتساب الملكة اللغوية، هذه الملكة التي أضاعها اللسان العربي عندما حصر مسألة تعلم اللغة في تلقين القواعد النحوية.

لهذا فإن معالجة ما أصاب الاستعمال اللغوي العربي من أمراض يعتمد على جانبين

متكاملين: جانب تيسير القواعد النحوية الأساسية لضبط هذا الاستعمال اللغوي، وتلقينها لمستعمل اللغة من جهة.

وجانب خلق جوّ للممارسة الفعلية للغة العربية الفصحى من جهة أخرى، لأن هذه الممارسة تجعل مستعمل اللغة يوظف ما تعلّمه من قواعد وضوابط، وتكراره لهذا التوظيف يكسبه نوعاً من الآلية التي تجعله يستعمل اللغة بطريقة سليمة وتلقائية مما يبعث على خلق ملكة لغوية.

الهوامش:

- ¹ - محمد الحضر حسين: القياس في اللغة العربية - الطبعة الثانية - دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان 1983 ص22.
- ² - أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية، - الطبعة الثانية - دار المعرفة، القاهرة 1965 م ص17.
- ³ - رمضان عبد التواب: العربية الفصحى والقرآن الكريم أمام العلمانية والاستشراق، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ص32.
- ⁴ - محمود تيمور: مشكلات اللغة العربية، الطبعة الأولى، المطبعة النموذجية، 1956، ص17.
- ⁵ - محمود فهمي حجازي: اللغة العربية في العصر الحديث، قضايا ومشكلات، دار بقاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1998، ص134.
- ⁶ - ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، المطبعة الأزهرية 1930م، ص496.
- ⁷ - أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح: مقال " الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي " - اللغة العربية - مجلة فصلية يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، العدد الثالث 2000، ص120.
- ⁸ - د. كمال بشر: علم اللغة الاجتماعي مدخل، الطبعة الثالثة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1997م، ص176.
- ⁹ - د. إبراهيم السامرائي: العربية تاريخ وتطور، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1413 هـ / 1993م، ص360.
- ¹⁰ - د. رشدي أحمد طعيمة : الأسس العامة لمناهج تعليم اللغة العربية - إعدادها - تطويرها - تقويمها - الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة 1421 هـ / 2000م، (ص83).
- ¹¹ - د. محمد إبراهيم عبادة : النحو التعليمي في التراث العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص13.